على ذكر حوادث فلسطين !

عـــار لا يمحى

للاســـتاذ شكرى فيصل

حين فتحت عينيّ فى الصباح كنت كالذى يستيقظ من حلم مرعب ... لم أكن شهدت ما يؤرقنى ويزعجنى ، ولكنى أعلم أنى أويت إلى فراشى وعلى شفتىّ هذه الأسئلة التى يدور بها ذهنى وينطلق بها لسانى : ما ذا تفعل هنا ؟ أى شيء هذا العلم الذى تجهد له ، وتعنى فيه الوقت والصحة والشباب ؟ ما يكون من شأن العربية التى تعمل لها وتنطوى جنديا من جنودها إن قدر لصهيون أن تحقق أحلامها ، وأن ترفع أعلامها ، وأن تنشىء سلطانها فى هذه البقعة من البلاد العربية ... أين يقع هذا العمل الذى تحبس نفسك عليه من هذه المعارك التى تدوى ، والغوص التى تستشهد ، والبلاد التى توشك أن تضيع بين حمق القيادات ، وحقد الزعامات وأطماع السياسات ، وحقارة الأغراض ... أين أنت ... وما شأنك وهذا الطريق ؟ لا طريق غيره قبل أن تسوى معالمه ، وترفع سواه ، وينتهى إلى غايته من طرد المدوان ، وصد الطغيان ، ورد الغزو الأحمق .

ولم تكن هذه هى الليلة الأولى التى أواجه فيها هذا الحساب العسير ... فقد كانت هذه الأسئلة تتخذ ألف لون ، وتصطبغ ألف صبغة ... وكانت تأخذ عليّ مسالكى فى النهار إذا ابتدأ النهار ، وفى الضحى إذا ارتفع الضحى ، وفى الظهيرة حين أقطع فى الظهيرة هذا الطريق الذى تستلقى عليه الظلال مكدودة ممزقة ، بين الجامعة وهذا البرج العاجى القريب الذى أعيش فيه ... وكانت تسد عليّ دروبى كلما هممت أن أعمل أو أفكر أو أكتب ، فلا يكون فى طاقتى أن أخلص منها أو أنتهى بها إلى رأى حاسم. كانت تتجاذبنى موجات من لهبة الروح وخمود الجسم ، من دفقة القلب وخور الأطراف ، من قسوة الواقع ومن رخاوة النشأة .. فلم يكن لى أكثر من أن أرتد إلى هذا الماضى ألعن هؤلاء الذين سيطروا على ثقافتنا من رجال الانتداب ، فزينوا لنا الحياة جنة وحريرا ، وما كانت إلا لهباً وسعيرا ، وجهاداً كبيرا ...

وفى خطى مضطربة سريعة ، كنت أمضى لأمد يدى إلى الباب أجذب الجريدة التى ترك الموزع نصفها ممتداً إلى داخل البيت ونصفها الآخر على العتبة الخارجية ، فعل الرجل المعجل السرع

***

وبدأت أقرأ ... وكان نبأ ... وكانت لحظات هى مزيج من الذهول العميق والدمعة الثرة .

حيفا ! ... إن كل صورة من صورها تنتثر أمام عينى فى وضوح شائك حاد ... إن أطيافها التى كانت فى ذهنى كالضباب المعتم تشرق فى لحظة سريعة فى مثل لهب النار المتأججة ، وتسطع فى مثل تألق البرق النير ... إن أصواتها التى كانت صدى ضئيلاً ، تحيلاً ، بعيداً ، فى خاطرى لترن فى أذنى فى مثل القصف المفزع . إنى لأنظر فى الصحيفة التى بين يدى ولكنى لا أرى حروفاً ولا أشهد كلمات ... وإنما أرى هذه المدينة التى مررت بها مرات ومرات فى طريق إلى القاهرة ، وفى طريق إلى دمشق . إنى لا أحس ما حولى ... لكأنى فى هذه اللحظات أذرع هذا الشارع ، شارع الملوك ، وأنحنى أدخل فى الشوارع القديمة التى تمتد وراءه ... إنى لا أسمع هذه الأصوات التى تتعالى هنا تحت نافذتى ، وإنما أنا أستمع إلى هذه الأصوات التى « كنت أعيش معها يوماً من كل عام ... إن آلافاً من الصور السريعة ، المتتابعة ، المتلاحقة ، تغزونى : الفندق والمطعم وسكة الحديد ، المحطة القديمة التى أقامها العثمانيون ، والمحطة الجديدة التى أقامها اللصوص المنتدبون ... المدينة القديمة والدكاكين الواطئة والأسواق المغطاة والتجار الدمشقيون وأبناؤهم وإخوانهم وجيرانهم ... باعة الكتب هؤلاء الذين كنت أرقب عندهم مطبوعات فلسطين وما يتيح الوضع القلق المؤلفين الفلسطينيين أن ينتجوه ... المسجد الجامع الذى كنت أصعد إليه على سلم رخامى عريض ، والمسجد الآخر الذى كنت أجتاز إليه سوقاً ضيقة مغلفة بالعتمة ... آلاف العمال العرب ، والوجوه العربية ، واللسان العربى بهذه اللهجة التى كانت تضم فى حيفا كل لهجات فلسطين؛ هذه كلها كانت تنثال عليّ وتنطلق من ذاكرتى كالنبع الفوار المضطرم ... لم يبق فى حيفا شارع أو طريق ، مشهد ، أو موقف ،

وكان حقير أو جليل ، شيخ كبير أو عامل صغير ، عامل دءوب من عمال المحطة ، أوصديق كريم من التجار ، أوجاهد نازح منذ نزح فيصل العظيم عن دمشق ... لم يبق فى حيفا القديمة أو حيفا الجديدة هذه التى كنا نسمى إليها فى مقر المراقبة لنعرض جوازاتنا وأوراقنا وأقلامنا ونتاج عامنا الدراسى على قوم بكم عجم نستأذنهم المرور بهـا فى بلادنا وأوطاننا ... هذه كلها عاشت فى ذهنى مرة واحدة ... لقد انتفضت كما ينتفض العصفور الجريح بعد أن تكون مرت به سكين بارقة بيضاء وخرجت وردية حمراء .

***

والآن ... ماذا بقى من حيفا هذه التى عرفنا ... ماذا أبقت منها بلاغات الزعماء ، وتصريحات الرؤساء ، وأحقاد قادة العرب . يا ويلى حين أتمثل أى شىء أبقت الحادثات من حيفا ... إنى لأجد النار التى تكوينى ، والسياط التى تؤذينى ... إنى أهرب من نفسى لأنى أخجل من نفسى أن أقول الذى كان ... ليس فى يدى هذه الأداة الطيعة التى تنساب فوق هذه الأوراق ، فقد كفرت بالأقلام والأوراق ... وماذا يقول الكاتبون إن كتبوا ... وبم الذين يسألونهم أن يكتبوا ، كأنما يسألونهم أن يقصوا عليهم قصة من تاريخ قديم لأمة منقرضة ، يزينون حواشيها ببلاغة القول ، ويفيضون على أطرافها ريق الأدب ، ويذهبون ببعض مواقفها فى شطحات الخيال ، وينمقون نظمها بروعة الأساليب ، ثم يدعونهم أن ينعموا بما فيها من فن أو بيان ؛ والمصيبة التى تحل فى فلسطين مصيبتهم ، والوطن الذى يُغتصب وطنهم ، والأعراض التى تنتهك أعراضهم ، وموا كب الذين أجلوا عن ديارهم أمام أعينهم فى كل عاصمة من عواصم العرب ... كأنما لا يزال هناك حاجة إلى حمية تستثار ، وحماسة توقظ ، ومقالات تكتب وتنشر .

وماذا يكتب الكاتبون ؟ هل يسجلون الخزى ، ويؤرخون العار ؟ ... هل يقولون كان هنا مسجد فاندثر المسجد ، وكان هنا سوق فسويت السوق بالتراب ، وكان هنا حرمات وذكريات فديست الحرمات ودفنت الذكريات ... أفيستطيع القائلون أن يقولوا كان هنا أعراض فانتهكت الأعراض ، وكان أطفال ونساء فهام الأطفال والنساء على وجوههم ؟ كان هنا مدينة عربية - ثانية الموانىء العربية على البحر العربى ثم مرت بها ساعات مجنونة مسحورة فانتزعت من أهلها ، وأطبق عليها الأعداء من فوق ، فى مثل سرعة اللص الغادر ، وخفة المجرم المدرب ، وتنظيم الكيد المبيت ... فلم يدعوا فيها أثراً لعروبتها ... ثم طفقوا يغنون ويرقصون ويشربون على أشلاء القتلى وأنفاس المنكوبين الحرى ... ثم مضوا يفعلون ويفعلون ، وتتصاعد عشرة آلاف « وا معتصماه » من عشرة الآف قلب ، قلب طفلة غريرة ، وفتاة نضيرة ، وزوجة وفية ، وامرأة حامل ... ثم لا يكون فى أمراء العرب ، ورؤساء العرب ، وأقطاب العرب ، من مشارق الحجاز وهضاب نجد ، وغوطة دمشق ، وغابة بيروت ، وظلال الوادى ، « معتصم » واحد يسرع إليها بجيشه ، لا يحميها ، ولكنما يتخذها جنة ووقاء لأعراضه وأوطانه التى حيسرى إليها الداء ... وإنما يكون فيها « معتصمون » بالهدوء يخافون لوم اللائمين فى الدنيا ولا يخافون عذاب الله فى الآخرة وذلة الخزى فى التاريخ ... ويرجون السيادة بعد أن انتزعت منهم صرة السيادة ، ويأملون لذراريهم الخير والم يبق شىء من الخير لهم حتى يورثونه ذراريهم ؛ ويلتزمون الحذر ، وما هو إلا الضعف والخور ... ويتدفقون بالأحاديث ولا يزالون ، لا تحس فيها وهج النار ، ولا تجد لها رائحة البارود ، ولا تسمع لها قصف المدفع وثقل العتاد ، ولا تشعر أن وراءها جلبة جيش ودوى تكبير ... وإنما هى لا تزال تنضح بالعطف ، وتنشر السلم ، وتنثر الأزاهير ، ثم لا تنسى أن تحتمى بآيات من كتاب الله وأحاديث رسول الله ... والويل لهم من يوم الله ... ما كان الله ليرتضى منهم هدوء الموت وسياسة الضعف ، وحذر الجبناء .

***

أى عار هذه المذلة التى يلقاها العرب فى محنتهم الحاضرة ! . أى قدرة على الحياة هذه التى يستطيعون أن يباهوا بها ، أن يتقدموا بها إلى العالم المتمدن برهاناً إذا ظل الكرمل هو الكرمل ، وظلت حيفا فى قبضته فى إسار الذل وذل الهوان ! ... أى خديعة أرادها لهم هؤلاء الحياديون الذين يصدر عنهم الشر وينتهى إليهم الشر . أى بلاهة سيرميهم بها التاريخ إن لم يرفعوا هذا الإصر ، ويحطموا هذا الذل ، ويستنقذوا الشرف الذى غلب عليه المكر ، واستطلحت عليه عوامل النزو والسلب ، وبات طريداً شريداً تنزف من جراحه

الدماء ، من ورائه نار ومن أمامه بحر ، ومن دونه ودون الإنقاذ قوم يتامون على الوعود ، ويستكينون للثقة ، ويلينون لمسول الأحاديث الخلب ، ويؤثرون أعداءهم بالأمن ويحملون إليهم السلام حملا على جثث من قتلاهم ، وأشلاء من موتاهم ، ودماء من دمائهم !!

كانت فى هذه البقعة من الأرض حيفا عربية ... ولن يكون فى قدرة أحد من الذين يتطلعون إلى المجد العربى ، ويعملون ليقظة الإسلام أن يتحدث عن الشعب العربى ، عن توثبه ، عن أمله العريض ، عن جامعته ووحدته ، قبل أن تعود حيفا عربية من ذروة الجبل إلى قدميه اللتين تستلقيان على شاطىء البحر وأمواجه ، قبل أن يغسل هذا العار الذى يكسو كل هضبة من هضاب الكرمل ويقف عند كل ثنية من ثناياه ، ثم يرمى بأرجاسه وأحجاره بعيداً ، بعيداً ، فى سط البحر ... قبل أن يقف عشرات المؤذنين فى عشرات المساجد ينادون من جديد : الله أكبر ، الله أكبر .

لن يكون فى أعناقنا ولاء لأى واحد من هؤلاء الذين يتمثل فيهم سلطان العرب قبل أن يمحى هذا العار ... إن فى يد كل زعيم عربى أثرا من رجس ، وإن أيدينا لن تصافح من جديد إلا أولئك الذين طهروا أيديهم من هذا الرجس وغمسوها فى دم أعدائهم سبع مرات متواليات .

***

لا الذين يحمون بيوت الله ، ولا الذين ينقمون لرسول الله ، ولا الذين يحيون شرع الله ، ولا الذين يدعون العروبة قبل محمد نبى الله ... ليس أحد من هؤلاء جميعاً أهلا لأن يكون حيث يريد أن يكون حتى يكشف غمة هذا الخزى الذى يعيش فى وطأته كل هذه الملايين ... وحينذاك ... حينذاك فقط سيكون فى الخالدين ... سيكون فى هذه الصفحة المشرقة التى يشع فيها وهج محمد ، والتى تتلألأ عليها بحروف متوهجة نيرة أسماء سعد وعمرو وطارق وموسى وصلاح الدين ونور الدين وإبراهيم باشا . أما قبل ذلك ... فدعونا نردد قول الله : ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل ... ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً .

القاهرة (س . ب ١٣٧٥) شكرى فيصل

عبد الله بن سبأ

(بقية المنشور على صفحة ٤٥١)

ونستطيع أن نقول بعد مقارنة المراجع التى ورد فيها ذكر عبد الله بن سبأ ، أننا لم نجد حتى الآن أى مصدر يفصل لنا حياة هذا اليهودى المسلم ، وقد ذهبت أكثرها إلى أنه كان من أهل اليمن وأنه كان من مدينة « صنعاء » عاصمة اليمن والتى لم ذكرها فى عهد الأحباش خاصة ، وأنه كان يهودياً فأسلم وصار يتنقل فى الأقطار الإسلامية حتى انتهى به المطاف فى العراق حيث نزل البصرة ثم الكوفة ثم الشام ؛ غير أنه لم يجد من بين الشاميين أنصاراً ، فذهب إلى مصر حيث راجت دعوته هناك ووجد له أتباعاً ، ولعب دوراً كبيراً فى الفتنة التى أثارها على الخليفة عثمان .

وقد عرف هذا الرجل بصورة عامة باسم « عبد الله » وأما اسم والده فهو « سبأ » . ويندر ورود هذه الكلمة على أنها اسم شخص (١) . وقد ورد فى بعض الكتب على أنه عبد الله ابن وهب أو وهاب بن سبأ(٢) . أو عبد الله بن وهب السبائى(٣) نسبة إلى سبأ . وزعم أنه كان على رأس الخوارج . ويعنى بهذا أنه من « سبأ » أى من أهل اليمن ، فهو من أصل عربى جنوبى على زعم الرواة (٤) . وربما كانت هذه النسبة هى التى جعلت الأخباريين يتصورون أن اسم والده هو سبأ . على كل حال لا نستطيع أن نعرف اسم والده بالضبط .

وقد اشتهر عبد الله كذلك بابن السوداء ، ويظهر من رواية الطبرى أنه إنما قيل له ذلك لأن أمه كانت سوداء ، فعرف بابن السوداء . وقد فرقت بعض المصادر بين « عبد الله بن سبأ » و « ابن السوداء » فجعلت بعضها عبد الله بن السوداء رجلا آخر كان يعين السبائية « السبابية » على قولها ، وأنه كان فى الأصل يهودياً غير أنه كان من أهل الحيرة (٥) .

جواد على

(١) القاموس طبع كلكتا حـ ١ ص ٢١

(٢) خطط مقريزى حـ ٢ ص ٣٥٦

(٣) Friedländer , P , 19 ذهبى مشتبه طبعة « De Jang » حـ ٢ ص ٢٥٠

(٤) الاشتقاق لابن دريد ص ٢١٧ بين شعب وبين اسم شخص .

(٥) البغدادى فى مادة « السبابية » .